

مدخل

لو قبض لأحدنا أن يلقي من الكوكب سيربوس الذي يفوق الشمس سطوعاً وتلألأً، نظرة عابرة على سطح كرتنا الأرضية في أواخر القرن الخامس عشر، لأخذته الحيرة واضطرب لبه لما رأى من شتات الجماعات المتمدينة ولما رسفت فيه من عزلة وانقطاع .

هنالك حضارات لم تشعر قط بوجود غيرها بما قام من أمثالها . فالمجتمعات الأميركية التي قام معظمها الى الساحل المطل على المحيط الهادي ، كانت لعمري مجتمعات لم يعرف عنها العالم القديم شيئاً قط ، هذا العالم الذي تألفت اقسامه من أوروبا وآسيا وأفريقيا . ولم تتصل بأي من هذه الجماعات عن اخواتها سوى معلومات متقطعة ، غامضة لا تشفي غليلاً ، وهذه الحضارات المتباينة عاشت لذاتها ، ربطت بينها ، فيما لو تم لها شيء من ذلك علاقات سطحية ، فلا تعرف الواحدة عن الاخرى ، اذا ما عرفت ، شيئاً يذكر او كبير أمر . وقد كتب لاوروبا ان توحد بين اعضاء الاسرة البشرية بعد ان تم لها ماتم من منهجية آسرة ومعلومات موسوعية في الصميم .

فقد تكشفت اوروبا في أواخر القرن الخامس عشر عن تفوق تقني بارز في فواح عديدة من مراكز القيادة ، وتسامت عالياً لتطل من عل على اطراف كرتنا الارضية ، حتى على الصين في الشرق الاقصى ، وعلى هذا القسم من آسيا المعرض للأمطار الموسمية . فقد تم للاوروبيين في أواخر القرن الخامس عشر زخم تقني عارم ارتسمت تباشيره منذ القرن العاشر وتبلورت كشوفاً مثيرة وتطبيقاً لذرائع ووسائل عرفت أوروبا من قبل . فقد انتشرت في القرن الخامس عشر المطاحن المائية وطريقة جديدة لكندن الحصان في رقبتة ، والثور بعد ان استعيض عن قرونه بالنير وشهد الانسان في القرن الثالث عشر والاجيال اللاحقة ضغطاً متزايداً من جراء غم الناس وتزايدهم ، بعد ان ارتقع عددهم الى اربعة اضعاف ما كانوا عليه في السنة الألف ، كذلك تم اختراع رئيسي في فن تسيير السفن وذلك باعتماد الدفة المحورية العالقة بفضلة ركزت في الدعامة الطولانية الوسطى للسفينة ، وانتشر استعمال الأبرة المنطيسية بعد ان اخذوها من الصين ، وعولوا ، اكثر فاكثر ، منذ أواخر القرن الثالث عشر ، على نظام السفنجة اساساً

والاعتماد المالي ، هذا النظام الذي اخذت به ايطاليا أول من اخذت وجرت على اعتماده اساساً في معاملاتها : حواضر البلاد البحرية وعواصمها الاقتصادية كجنوى وفلورنسا والبندقية مما امن تعميم هذا النهج ونشره في شبه الجزيرة الايبيرية وفرنسا وانكلترا والمانيا الجنوبية والمانيا الالمانية . فكان من بعض نتائجه ان ادى الى تحسين نظام التبادل الدولي في حقل التجارة وتكوين نظام رأسمالي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالسفينة وارتكز عليها . وفي اواخر القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر اطلت علينا في هذه الحقبة نهضة صناعية اخذت تتطور وتبدأ في ايطاليا الشمالية والمانيا الالمانية ومقاطعة الفلاندر اعتمدت اساساً في عداد ما اعتمدت اليه وعولت عليه من ذرائع تقنية ، المنافع المائية في الافران الصناعية ، وذراع الدافعة في مضخ المهرج الآلي والتوصيل ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، الى بناء سفينة تصلح للأسفار والرحلات البحرية الطويلة عبر المحيطات هي الكرافيل ، والتمويل ، اكثر فاكتر ، على الاسطرلاب ، المعروف الاستعمال من قبل ، وعلى ربح محيط الدائرة والعمليات الحسابية التي تساعد على تحديد ارتفاع الشمس عند الهجرة للوصول الى تحديد نقطة المرض ، وغير ذلك من التحسينات الآلية التي ادخلت تبعاً على المخرات والتقنية التي اعتمد عليها اكثر فاكتر في تصنيع الريف والصناعة اليدوية .

وقد تفرد الاوروبيون دون سواهم بالقدرة على عبور المحيطات واجتيازها في اواخر القرن الخامس عشر فانشأوا لهم خارج اوروبا ، منذ مطلع القرن السادس عشر ، مناطق حضارية خاصة بهم وحضارة اوقيانية لم تلبث ان أصبحت نقطة تلاقي وتصادم وتفاعل وانفعال ، بين عوامل ومؤثرات حضارية جاءت من اوروبا واميركا وافريقيا وآسيا . وكان من اتساع هذا اللقاء وضخامة تفاعلاته ان اطلح بالمدنيات الاميركية ، وادخل تغييرات جذرية على الحضارات الافريقية ، وعاد بالرفه والغنى على الحضارة الاوروبية وزادها يقظة ووعياً كما ادى ، من جهة اخرى ، الى بعث النشاط في الحضارات الآسيوية ، اقله في بعض مظاهرها المادية . وهكذا اصبح في الوسع ان نتكلم ، عن «العولم» التي اقامها الانسان وعن هذه المجالات الاقتصادية والمراكز الحضارية التي كونت ، الى حد ما ، «عولم» اعجز مسن ان تستوعب العالم ، «عالم» البحر المتوسط ، و«عالم» الصين . فمنذ الآن ، ومع انه لا يزال يوجد في العالم ، مناطق منمزلة كجزر المحيط الهادي والمناطق القطبية ، والاصقاع الواقعة في قلب افريقيا ، فقد قام الى جانب العالم الاسباني الذي جعل من المحيط الاطلسي محوراً له فضم شطراً كبيراً من اميركا واشتمل ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، عبر المحيط الهادي ، ارضيبييل الفيليبين ، ليلغ مشارف اليابان والصين وماليزيا ، ثم قام العالم البرتغالي الذي اتخذ محوراً له افريقيا والهند ، وتحكم بمدخل بحر الهند ومخارجه ، وسيطر على جزر الاقاربه والطيب . وهكذا اصبح في مقدورها ان نعتبر العالم الارضي ، واقماً إنسانياً متحيزاً ، وان

تاريخ أوروبا وتاريخ الكرة الأرضية كلها مرتبطان إلى حد بعيد الواحد بمصير الآخر .

وستلعب أوروبا في العالم كله الدور الذي تلعبه كل كمية سببية متفاعلة . ففي قلبها وقع الحادث الفصل في تاريخ الأجيال الطالعة ، ألا وهو نشأة العلم الحديث ، علم أوروبا بالذات ، عند ما تم لغاليليو ، عام ١٦٠٤ ، اكتشاف قاموس الجاذبية ، أول قانون الحركة ، باب العلم الحديث ومحاربه ، كما وضع ، في الوقت ذاته ، أسس الفيزياء الرياضي ومباده الأساسية . وبذلك اثبت ان افلاطون كان على حق عندما راح يؤكد ، بمكس ارسطو ، ان الواقع المتعيز في الزمان والمكان يخضع للرياضيات ومقاييسها ، وان تحت الظواهر الحسية يكن نظام خفي يخضع للفكر الرياضي ، وان كل شيء يتكشف عن معادلات هندسية وعن حركات في غاية الانضباط والدقة ، وان كل شيء هو موضوع قابل للقياس والعد والوزن ، وبذلك تم للانسان السيطرة على الطبيعة والتحكم بها الى ما لا حد له . ان هذا التحول بطراً على الذهن البشري ، والانتقال الذي مكن له بصورة قطعية من فيزياء المناقبيية الى الفيزياء الرياضية والانتقال من الذهنية النوعية الى الذهنية الكمية ، ومن التقريبي ، الى الدقة والتام ، كل هذا وما اليه يكون في تاريخ الانسانية ، حدثاً له من الوقع الداوي والتأثير العميق ما يوازي او يعادل تغييراً في الجنس أو تحولاً جذرياً في الذهن . فنحن امام اعظم تحول فكري عرفته الانسانية عبر تاريخها المديد . فكل شيء تغير واصبح غير ما هو ، فيما بعد . فمن هذا التحول خرج مروراً بمؤسسي الميكانيكا وروادها الكبار امثال : ديكارت ونيوتن وفلاسفة عصر الانوار كأوغست كونت ودارون وكارل ماركس وكوري وانشتان العالم الحديث ، عالمنا هذا المعاصر الذي نعيش ، بعد ان تهيأت اسباب هذه الثورة الجذرية الكبرى التي خبرها القرن السابع عشر منذ عهد بعيد بعد ان ارتدت مظاهر شتى ومرت بمراحل عديدة . فأثار هذه الذهنية الكمية والاهتمام بالتمييز جيداً بين ما هو للمادة وبين ما هو للروح ، والرفض بعناد ، ان نضفي على المادة ، ما ليس من صفاتها ولا من خصائصها ، والرفض باعتباره واقعيّاً ما يناقض المحسوسات المرقمة التي يمكن تطبيقها على المادة الخاضعة للوزن والقياس والكيل ، كل هذا وما اليه ما نصت عليه مخلفات القرن السادس عشر الفكرية فكان ايضاً لهذا الجدل العنيف الذي أثارته هذه الأهاجي البروتستانتية التي قدفوا بها العقائد الكاثوليكية التي تعلم الوجود الحسي لجسد السيد المسيح تحت اعراض الخبز والخمر بعد استحالتهما ، هذه الأهاجي التي هيأت ومهدت السبيل امام الفلسفة الديكارتية . ومع هذا ، قد تكون الجذور اعمد من ذلك بكثير . هل يجوز ان نرد التحول الفكري الى هذا الازدهار الذي عرفته التقنية التي تفترض ، لتعمل ذهنياً إيجابياً وعقلانياً خاضعاً لمبدأ السببية الذاتية ، هذه التقنية التي قامت على نظام الاعتماد المالي والسفنجية ، هذا النظام الذي كان يفترض دوماً العد والحساب وتحويل كل شيء الى معادلات حسابية ، باستثناء تلك الذرائع التقنية التي تتعلق بالبناء والصناعة مما لا بد منه لتأمين نجاح اعمالها على اساس من الاعمال الحسابية والهندسية ؟ ايه لعمرى ، الى حد ما ، أقله كعامل إثارة واغراء للفضول العقلي . وها هو غاليليو نفسه يدعو الى ذلك ، في مباحثه التي ظهرت عام ١٦٣٨ ،

اذ نراه يؤكد لنا بأنه 'دفع دفعاً الى طرق هذه الموضوعات ودرسها بعهد الذي طالعه ووقعت عليه نواظره في ترسانة البندقية ، وما شاهده فيها من الآلات والاجهزة الراقعة التي تحير الالباب والتي حاول ان ينفذ منها الى مكنونات اسرارها حتى والى ابعد من هذا ، الى ماجريات هذه الخصومة الابدية التي قامت بين اتباع الواقعية واتباع الفلسفة الاسميّة والرجحان الوقتي الذي حققه الفلاسفة الاسميون ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مع وليم او كهام عندما استقر في خلداهم ان المعاني العامة المجردة ليست سوى اسماء لأشياء خاصة . فلا يوجد في الحقيقة سوى الأشياء المفردة . اما المفاهيم العامة فلا وجود لها الا في الفكر بعد ان تتخذ صورها من المحسوسات والمشاعر . وهذا انما يعني ان المفاهيم العامة إنما هي اسماء او مسميات لا اكثر ولا أقل . فمعلوماتنا ، والحالة هذه ، انما هي معلومات نسبية وان كل ما نستطيع ان نفهمه حق الفهم هو المظاهر الحسية عن طريق التجربة والاختبار . ومن هذا النقاش ، طلعت علينا مدرسة بازيس بهذه الآثار الرياضية والفيزيائية الرائعة ، هذه الآثار التي نحن مدينون كثيراً لواضعيها امثال جان بوريدان والبرت ده ساكس ونيقولا أوريسم الذي كاد يقع على القانون الذي وضعه غاليليو ، هذه المدرسة التي كانت آثارها منطلقاً للابحاث التي قام بها هذا العالم وبفضلهم جميعاً استطاع القرن السابع عشر الذي يؤلف نقطة انطلاق جديدة في التاريخ العام وعطفة حاسمة من عطفاته التاريخية ، ان يطلع على البشرية بمصر جديد وحياء جديدة .

وهذه الفردية التي ميزت اوروبا جاءت في آن واحد نتيجة لهذه الاكتشافات ولهذا التحول الذي عرفه الذهن البشري . فقد جاءت شرطاً لها ونتيجة ، واخذت تتطور وتتمو منذ ذلك الحين ، وسجلت قطعة او تباعداً من قبل رجل او بضعة رجال ، لهذه الاعراف التي سار عليها الناس او لعادات ومراسم اعتمدها او اعتمدها مجتمع قائم بذاته ، وهذا الاستقلال الذاتي يحققه الفرد ، لم يلبث ان عم اوروبا باجمها . صحيح ان الانسان تمتع بحرية هي بكثير ، دون الحرية التي تمت لانسان القرن التاسع عشر . فهو لا يزال مشدوداً الى وشائج الاسرة والروابط القبلية والمهنية والاجتمعية . ولكن ما عسى ان تكون هذه الروابط اذا ما قيست بتلك القيود التي رسف فيها الانسان ، في الهند ، مثلاً ، في هذا النظام الطبقي الذي أرزح المجتمع ، أو في الصين حيث يرى الانسان نفسه مشدوداً شداً الى روابط الاسرة والآباء او في اميركا حيث كان الفرد يرزح تحت ضغوط الاعراف القبلية . وما عسى ان يكون امر هذه القيود المبيقة بازاء استحالة إدخال اي تغيير على هذه الاشكال الخائفة والمراسم الضيقة ممارسه الجسدود او أقاموا له الحدود الذهنية ، اذا ما قارنا هذا كله بحرية القول والفكر التي ينعم بها اهل هذا العصر ؟ فاذا ما توفرت لبعض ظروف الإفلات او الهروب من حياة التجريد او التأمل ، تحتم عليهم الانصهار مع المطلق والإعراض عن المسالم الخارجي ومغرياته هذا العالم ذي المظاهر الخداهة الزائفة . وعلى عكس ذلك فالفردية الأوروبية ازدادت رسوخاً تحت تأثير عامل المسيحية . فالتنائية ، هذا المبدأ الاساسي الذي يطبع في الصمم للفكر المسيحي يضع ازاء الله اللامتناهي

العمى والكلبي الكمال ، خليفته التي برأ وابدع ، لتبقى الى الابد ، متميزة عنه منفصلة تنعم في شبطة موصولة بمشاهدة كمالات الله . فهي روح اغازت بالفردية بتوجب خلاصها وتقادي ذهابها الى جهنم والدخول بها الى الفردوس ، حيث تنعم ، وجها لوجه بمشاهدة الله . فالمسيح بذل دمه وقاسى عذاب الصليب فداءً لجميع البشر ولسان حاله يردد : « هذه النقطة من دمي بذلتها وجئتُ بها لتبلك » . فحياة الانسان على هذه الفانية هي حوار موصول بينه وبين الله ، وهي صراج مستمر بينه وبين أركان الظلام . فالحلبة القائمة تنضح بالدين والتقوى ، وفيها بلغت مراسم الإبتها الى الله وعبادته ، والتعاون معه ، والخضوع لمشيئته ، والاتصال به ، تمامها الاكمل وكالها الأتم ، مع العلم ان بعضهم استطاع تحقيق مثل هذا الاتصال بالذات الالهية وانصهروا فيها بعد ان تطهروا من ادران المادة وشوائبها . وهذه الحركة التي انبعثت من العلماء الروحانيين ، اصحاب « التقية الحديثة » في القرن الرابع عشر امثال : روبروك وطولر ، واخوة الحياة المشتركة والكنهنة القانونيين في وندشاهيم ، جاءت تماماً ، وفاقاً لمراسم العبادة التي قال بها وعلم فزيق من أولياء الله ، أمثال القديس اغناطيوس ده لويولا والقديسة تريزيا دافيلّا والقديس يوحنا ده لاسكروا والقديس فرنسيس الساليزي وبايبرول *Bérulle* والرهبات السلبوسيين والمدرسة الفرنسية في القرن السابع عشر . ففي مثل هذا المحيط من الزهاد الهيجم والتصوفة ، المشبع بطاقات الفرد المادف الى المجوى ربه يعمل فريق مختار امثال : كبلر وديكارت . كبلر هذا الذي تخيل اليه يوماً انه توصل بنعمة الله الى الكشف عن مقاصد الله في خلقه والاسباب الموجبة لعبادته عز وعلا ، في ما تبدى له من نواميس دوران الفلك ، وديكارت الذي اخذ على نفسه ان يرسي الدعائم الفلسفية التي تقوم عليها الحقائق الدينية ، ويجزي ، الى الابد ، الكفار والملاحدة والمعتلين . وفي مثل هذا الجو نفسه يندفع ، كالفارس المهاد في حملة صليبية ، المناضل في سبيل ربه مرضاة لوجهه الكريم ، فاسكو ده غاما وفرناند كوريس . فقبل ان يطلع فاسكو بجرأ في رحلة طويلة ، زاه يقضي ليه الطويل ضارباً الى الله ، متوسلاً اليه في كنيسة السيدة ، في بلدة بيت لحم الواقعة على ضفاف نهر التاجه ، ومبتها اليه تسديد خطاه . وكنتيجة للاعتقاد بالله قيوم ، متميز كلياً عن هذا العالم الذي ابدعه من العدم ، وعلى ضوء علاقة النفس برها وقد اطأنت به كل املاها ، والفارس المسيحي بسيدته ، ومحاولة الفرد يهفو الى ربه ويتقرب منه بالصلاة والضراعة او الانخراط في تجريدة صليبية ، كل هذه الامور وما اليها ، نماذج واضحة من هذه الفردية الاوروبية التي راحت تتجلى في مظاهر شتى من طلب العلم والبحث عنه والابداع ، والتنطور .

هكذا تولت اوروباً مهمة كتابة تاريخ العالم وقيادته . فحاول الاوروبيون نشر المسيحية ومدن العالم وايلاده طابعاً اوروبياً . فجماعات النتائج على غير استواء . فاذا ما ضربنا صفعاً عن القارة السوداء حيث بقيت محاولاتهم ضيقة الحدود ، معدودة الاثر واستعملوها كعين لهم لا ينضب لهم بما يحتاجون اليه من الارقاء لاستنثارهم الطائفة في اميركا ، فقد حققوا بعض النجاح في هذه المناطق الاميركية حيث قامت جماعات متحضرة تعاطى اقوامها الزراعة في

الادوار النحاسية والبرونزية انتظموا خلالها دولاً وحكومات نأت عن الحضارة الأوروبية لتكون بنأى من سيطرتها وتفوقها ، قريبة منها بالقدر اللازم ، مع ذلك ، لتقبس منها ما ترغب في اقتباسه . اما المناطق التي وجد فيها الأوروبيون انفسهم وجهاً لوجه مع قبائل يتعاطى اقوامها جني الائمثار ويحترفون الصيد والقنص والفلاحة البدائية فقد شهدت من مآسي المذابح والاستباحات وصنوف الابتزاز ما فتت في عضد تلك السیادات المحلية . اما في آسيا وأفريقيا حيث وجد الأوروبيون حضارات تعود للعصر الحديدي ، تختلف كلياً عن الحضارة التي تمت لهم كالحضارة الإسلامية وغيرها من حضارات الهند والصين مثلاً ، عرفت نظم الملكية واقامت نوعاً من البنيان الاجتماعي ونظرت الى الكون بمنظار يختلف عما تم لأوروبا منه ، او كانت على مستوى حضاري لم تشمر معه بتفوق الأوروبيين الظاهر ، فقد جاء انتشار المسيحية فيها وتغلغل الحضارة الأوروبية بين ارجائها ، سطحياً . فلم تدخل هذه الحضارات تغييراً جذرياً على اوضاعها الغائمة . فآسيا الموسمية التي كان الفرد فيها يشمر على الخصوص ، بوطة الطبيعة المرزحة ، ويشن من جشع بعض المجتمعات البشرية البغيض ، ويصطدم بمذاهب فكرية ونظريات فلسفية دينية لا يههما الا المطلق ، وتستتكف بازدراء وأنفة عن درس العالم الخارجي الذي لم يكن في نظرها سوى انسراب لا نهاية له ولا حد لمظاهر غرارة متفيرة دوماً ، فكان اخذها باسباب التطور والتحول ، دون ما كان عليه في أوروبا بكثير . وقد برهن الآسيويون عن ان القدرة على التطور والاستعداد للأخذ باسبابه ومسبباته لم تكن لتنقصهم قط . فقد ارتفع بعضهم وساء فريق منهم الى افكار ونظريات ، سجل الوصول اليها محموراً للفرد كما تم لطبقة السيخ في الهند بعد ان تبينوا وادركوا ان محبة الله بالروح والحق التجلية باعمال البر والتقوى ، تحرر من النظام الطبقي والفرائض المرزحة التي وجد الانسان نفسه يرسف فيها . فالصيني وانغ - يانغ - منغ رأى ان كل انسان عالماً كان ام جاهلاً ، رياً كان او فقيراً ، ذكياً او متبذد الذهن ، يملك في ذاته ، وثكتنه سريره ، مبدأ الخير والشر ومبدأ التكامل النفسي ، وفيه القدرة على ابداء رأيه في قبعة الاعمال التي يترتب على المرء القيام بها ، وهكذا يجد نفسه في النهاية متحرراً من التقاليد والاعراف العائلية ، ومن تعاليم قدامى الكتاب . ووصاياهم ، ومن ضوابط العادات المستبدة ، كذلك هؤلاء اليابانيون من اتباع يوفية زن فهم يتوقعون كل شيء من التفكير الشخصي في العالم وفي المجتمع ، بعد ان ينطلقوا من ترمات مذه الدنيا وامورها ليصلوا بانفسهم الى معرفة المطلق ، مدرسة الاستقلال والفردية . كل هذه المظاهر ، مها كانت افرادية ومحدودة .
تثبت بوضوح وجلاء بالرغم من كل الفوارق التي تبقى مع ذلك ثانوية ، هذه الفوارق التي تقوم على العرف والمناخ وحدتان التاريخ ومجرياته ، ووحدة الجنس البشري . غير ان آسيا باعراضها الموقت عن المسيحية وضربها كشحاً عن المدنية الغربية وما يكتنانه في واقعها المتحيز من شمول وقيم صالحة ابدأ للناس اجمع ، في كل زمان ومكان ، تكون قد تخلت لأوروبا عن مهمة قيادة البشرية كما تكون تخلت لها ايضاً ، عن الطاقة الهائلة الكامنة في هذه التقنيات ، وفتحت امامها على مصراعها ، ابواب السيطرة والسؤدد على العالم ، والتحكيم بالتالي ، بمقدراته ومصائر .